

رحلة شخصية إلى حلب و بلاد الشام و الجمهورية العربية السورية  
كلمة الافتتاح بمناسبة الذكرى المئوية الرابعة للقنصلية الهولندية في حلب، 28  
تشرين الأول 2007  
يلقيها الدكتور نيقولاوس فان دام<sup>1</sup>

أصحاب السعادة ،  
السيد عبدالقادر جزماتي، نائب رئيس المكتب التنفيذي لمجلس محافظة حلب  
السيدة ديزيريه بونيس، سفيرة هولندا في دمشق  
البارونة فان ليندن، مديرة إفريقيا و الشرق الأوسط في وزارة الخارجية  
الهولندية  
السيد معن الشبلي رئيس مجلس مدينة حلب الشهباء  
أعضاء السلك القنصلي  
أصدقائي السوريون الأعزاء و أصدقاء سورية  
حضرات الضيوف الكرام  
السيدات و السادة

### **فصلت حلب عن أرضها المحيطة بها**

منذ حوالي 400 سنة مضت و عندما تم رسمياً تعيين أول قنصل لهولندا في حلب، بدأنا عندها العلاقات الثنائية التي نحتفل بها اليوم. و لكن لن أقوم اليوم بتناول التاريخ المعقد لهذه العلاقة القديمة التي امتدت لقرون كما تم تناولها بشكل شامل في الكتاب الممتع و المنتج بشكل جميل و الذي تم نشره بهذه المناسبة، من قبل قنصل هولندا في حلب الثامن و الثلاثين، السيد حسين المدرس بالتعاون مع السيد أوليفيه سالمون.<sup>2</sup>

سيكون تركيزي اليوم على الزمن الحديث. و سأقوم بالتعمق أكثر خلال محاضرتي التي سألقياها في حلب يوم الأربعاء القادم في 31 تشرين الأول 2007.

لا يمكن أن تكون الرحلة من أمستردام إلى حلب سهلة في ذلك الوقت، و ذلك ليس فقط بسبب وسائل التنقل الصعبة و الأخطار السائدة و في بعض الأحيان الظروف الخطيرة. و لكن الجانب الايجابي أنه خلال عهد الإمبراطورية العثمانية كان يجب عبور حدود دولية و سياسية أقل مما هي عليه الآن و التي تعوق طرقنا هذه الأيام.

كان موقع مدينة حلب الاجتماعي-الاقتصادي مختلفاً حينذاك، على الرغم من أنه جغرافياً ما يزال نفسه. لم تكن حلب مفصولة بعد عن ما يسمى أرضها الخلفية الطبيعية كما هي اليوم، وذلك بسبب الحدود الناتجة من الحرب العالمية الأولى و الانتدابين الفرنسي و البريطاني اللاحقين لها. تم وصف سورية في الأدب العربي القومي على أنها بلد فصل عن أرضه الخلفية، و بذلك أصبح ك جسم عديم الأطراف. و تعد حلب مثلاً واضحاً على هذه الظاهرة. إن كل من ينظر إلى الخريطة السياسية لسورية في يومنا الحاضر يعتبرها بيئة بذاتها على وجود علاقات مكثفة بين حلب و دمشق على كل من الصعيد الاجتماعي و مجال التجارة و الاقتصاد. و لكن عند النظر إلى خرائط أقدم يتبين أن طرق التجارة كانت مختلفة تماماً و كنتيجة فان العلاقات، و على سبيل المثال، بين حلب و الموصل كانت مكثفة أكثر من العلاقات بين حلب و دمشق. و كانت مدن كماردين و عينتاب و حران، متجاوزين ذكر الاسكندرون، و التي هي الآن كلها ضمن تركيا، ما تزال جزءاً من الشبكة الطبيعية لحلب.

### **البداية بـ "حياة سورية"**

السيدات و السادة

بدأت منذ حوالي أربعين عاماً بنوع من الحياة الثانية و التي أحب أن ادعوها "حياتي السورية". بدأ كل شيء من خلال رحلتي الأولى إلى الجمهورية العربية السورية، إلى مدينة حلب و ريفها. و كان ذلك في الأسواق التقليدية الجميلة لحلب عام 1964 عندما قام طالب سوري من قرية ريفية مجاورة بدعوتي للإقامة عنده لليلة تحت السماء الصيفية المفتوحة بجانب منزله المصنوع من القرميد الطيني و الذي يشبه خلية النحل. كان الجو حاراً جداً تحت هذه القبة القرميدية لكي تنام مرتاحاً، لكنه كان نوعاً آخر من الراحة تعودت عليه فيما بعد. و استمتعت في هذه القرية الريفية الصغيرة و للمرة الأولى بالاستضافة العربية الكبيرة للعائلة السورية. بدأ الأمر و كأنه ولادة لمرة ثانية و لكن الآن في بلد جديد و ثقافة أخرى و عائلة جديدة.

إن هذا اللقاء الأول مع سورية و الذي كان جميلاً و مثيراً على الصعيد الشخصي، أصبح ذا تأثير كبير لما تبقى من حياتي و ذلك فكرياً و عاطفياً و لم أفقد منذ ذلك الحين اهتمامي بهذا البلد الجميل. بل على العكس فقد تعزز اهتمامي و توقي لمعرفة سورية أكثر و بشكل حميم أكثر بمرور الوقت.

و لا يمكنني أن أتجنب ذكر أن العكس ممكن الحصول. فقط تخيل التمر الذي تتعرض له من قبل سلطات الهجرة عندما تدخل بلداً ما للمرة الأولى. و هذا يترك أثراً سلبياً من الصعب محوه فيما بعد. لا أتذكر أن شرطة الحدود السورية كانت وديةً معي كثيراً في ذلك الوقت (فبعض منهم كان في ثياب النوم أو ذهبوا إلى فراشهم عندما وصلت متأخراً في الليل)، و لكن ما حدث معي عند تقاطع باب الهوى – و هو أمر لن أنساه أبداً- أنه في صباح اليوم التالي قام أحد السوريين اللطيفين بإعادة محفظتي التي أضعتها على ما يبدو الليلة السابقة، فقد وقعت على الأرض عندما كنت نائماً على مقعد خشبي صلب أنتظر بصبر الحدود لكي تفتح. و حيث أن المحفظة كانت تحوي على كل أشيائي المهمة و التي بدونها سيكون دخول سورية أمراً صعباً على أية حال، فقد كان بالفعل هذا الهبوط للمرة الأولى في الأرض العربية لطيفاً و ساراً. و في بداية السبعينات تعرفت و للمرة الأولى على القنصل الفخري لهولندا في حلب، و الذي كان السيد المتعاطف جان مكربنه. استقبلني بحرارة في مكتبه الكائن في قسطل حجارين، و دعاني أيضاً فيما بعد بكرم ضيافته إلى منزله و إلى نادي السياحة، ترافقتنا زوجته السيدة آردا مكربنه و ابناهما ادوارد (الذي هو الآن القنصل الفخري لفرنلندا في حلب و عضو في البرلمان السوري) و أخوه المحبوب المرحوم كارل مكربنه الذي اعتدت أن ألعب الشطرنج معه. و منذ ذلك الحين كان لي علاقات ودية و مكثفة مع القناصل الفخريين اللاحقين و هم السيد عصمت المدرس و زوجته السيدة دلال المدرس و مع ابنهما السيد حسين المدرس، الذي كخبير متمكن في حلب جعلني أتجول بحماسة كبيرة في هذه المدينة القديمة و ضواحيها، و جعلني أتعرف على ارثها الثقافي بشكل كبير.

أريد أن أشكرهم كلهم، هم و عائلاتهم، للصدقة الحارة و الدائمة و استضافتهم الكريمة التي لا تنسى. و بالطبع أريد أن أذكر هنا القناصل الفخريين لهولندا في اللاذقية، السيد رياض أزهرى و ابنته السيدة ياسمينه أزهرى و عائلاتهم. و بهذه المناسبة اقدر كثيراً إعطائي الفرصة لمخاطبتكم اليوم هنا في حلب.

و بالرغم من أنني أمضيت معظم حياتي الأكاديمية أتناول سورية و زرتها في العديد من المناسبات و أيضاً مع وفود وزارية هولندية متعددة، إلا أنني لم أنتشر أبداً بأن أكون دبلوماسياً معتمدا لدى الجمهورية العربية السورية، و

هذا بالرغم من أنني أعلنت عن رغبتى الشخصية القوية بذلك لقسم الموظفين منذ بدئى بالعمل مع وزارة الشؤون الخارجية في لاهاي. و لكن لا يوجد شيء اشتكى منه فقد خدمت في كل البلدان المجاورة لسورية بما فيها كل أراضي الهلال الخصيب المتصلة بها، و هذا يعني أنني خدمت في جزء أساسي في ما يدعى عادةً بلاد الشام ، أي في لبنان و الأردن و فلسطين و حتى في لواء الاسكندرون عندما خدمت في تركيا. و لكن من الجيد بعد كل هذا أن بعض الرغبات تبقى غير محققة فتسعى إليها بشكل أكبر.

### **يمكن تصنيف المستعربين الهولنديين إلى "الشامي" و "المصري"**

السيدات و السادة

انه لمن الطبيعي تصنيف المستعربين الهولنديين بالإضافة إلى المستعربين من جنسيات أخرى حسب اهتماماتهم الأكاديمية الشخصية و أذواقهم و اختياراتهم الإقليمية. يقوم أولئك الذين درسوا على التوالي في القاهرة أو دمشق بتصنيف بعضهم البعض كـ "مصري" أو "شامي". إن هذا التصنيف شارح لذاته. يهتم عادةً المستعربون المصنفون بـ "شامي" بأي شيء متعلق بسورية أو بلاد الشام في حين يميل الآخرون إلى التركيز أكثر على المواضيع المتعلقة بشكل مباشر أو غير مباشر بمصر أو وادي النيل. و لكن يجدر بالذكر أنه هناك أيضاً مستعربون هولنديون متنوعون لا تسمح لهم اهتماماتهم المتعددة الوجوه بأن يكونوا في أحد هذين التصنيفين.

إن معظم هذه الظاهرة هي نتيجة الإمكانيات للطلاب لكي يدرسوا في العالم العربي أو الافتقار إلى هذه الإمكانيات. من الواضح أن الاتصالات الأولية للطلاب مع العالم العربي تلعب عادة دوراً كبيراً في تطورهم الأكاديمي أو اهتماماتهم الأولية. و هذا واحد من الأسباب التي تجعل وجود معاهد هولندية أكاديمية في المنطقة أمراً مهماً. يعتبر المعهد الهولندي للآثار و الدراسات العربية في القاهرة (يدعى الآن المعهد الهولندي للفلمنكي)، و المؤسس عام 1971، أقدم معهد هولندي أكاديمي في المنطقة و ألهم العديد من الطلاب الهولنديين للغة العربية و الشرق الأوسط لبدء دراستهم في مصر. و كنتيجة غير مباشرة لذلك قام العديد من الطلاب بتركيز انتباههم بشكل أقل على بلدان أخرى كسورية مثلاً. أعرف بروفيسوراً باللغة العربية في جامعة هولندية كان يدرس مصر منذ أكثر من عشرين عاماً قبل أن يزور أخيراً سورية. بدا الأمر

بالنسبة لي غير اعتيادي أما بالنسبة له فلم يوجد سبب يدفعه لزيارة سورية في مرحلة مبكرة.

و لذلك فانه من المهم جداً أنه في عام 2001 تم تأسيس المعهد الهولندي للدراسات الأكاديمية في دمشق (NIASD)، موفراً فرصة ممتازة للطلاب و الأكاديميين للتعرف أكثر على بلاد الشام بما في ذلك من تضمينات لفهم أكبر في هولندا لسورية و البلاد المجاورة لها. كما أنها يمكن أن تساهم في تقوية العلاقات الثنائية في العديد من المجالات بين الشعبين السوري و الهولندي. وعلى أية حال فان العلاقات الشخصية هي التي تلعب دوراً محورياً في المساعدة لتحصيل فهم متبادل أفضل. و أيضاً من ذلك المنظور فان التعاون السوري-الهولندي يستحق بشكل كبير ترويجاً أكثر.

السيدات و السادة

يعود تاريخ الطريق الذي جمع السوريين و الهولنديين إلى أكثر من 400 عام. إن الطريق غني في إمكانياته، و يستطيع السوريون و الهولنديون التعلم من خبرات بعضهم البعض و يستطيعون اغناء بعضهم من خلال علاقات و اتصالات مكثفة أكثر في مجالات متنوعة. أنا مقتنع بأن هذا الأسبوع من التقابلات الهولندية-السورية يمكن أن يكون مساهمة جادة لتقدم هذه العلاقة. لنعمل معاً من أجل مستقبل مشترك لمنفعة كلا بلدينا و إقليمينا.

و شكراً

---

<sup>1</sup> الدكتور نيقولاوس فان دام ( [www.mfa.nl/jak](http://www.mfa.nl/jak) )، حالياً سفير هولندا في اندونيسيا و سفير سابق في العراق و مصر و تركيا و ألمانيا. لديه اهتمام أكاديمي خاص بسورية. أمضى معظم مهنته الدبلوماسية و الأكاديمية في العالم العربي بما في ذلك أيضاً ليبيا و لبنان و الأردن و المناطق الفلسطينية المحتلة. إن الآراء المذكورة هنا تعود له.

<sup>2</sup> حسين المدرس و اوليفيه سالمون، 2007،